ثقافة الناثر عند ابن الأثير(ت 637هـ)

في كتابه "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"

د.باية بن مساهل-جامعة المسيلة-

ملخص :

اهتمت كتب النقد القديم بالتنظير للخطاب الأدبي عموما، و بتقديم تصورات مثلى عن نضوج الخطاب النثري خصوصا ؛ على اعتبار أنه بأجناسه الكتابية يعد الوجه الأنسب للحضارة و التمدن ، فقد اكتسب القلم الدلالة الجديدة و أصبحت الكتابة حرفة و صناعة لها أسسها و قواعدها ، حيث أحس النقاد القدماء بخطورة هذا الفن الذي يرتقي بصاحبه إلى مرتبة الكاتب الوزير، و أدركوا حاجة الناثر/ الكاتب إلى التسلح بمختلف ألوان الثقافة التي لا يستغني عنها كل من يتعاطى الأدب .

وقد الْتَفتُ في هذه الدراسة إلى ابن الأثير الجزري (توفي 637هـ) في مصنفه " المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر " لكون المؤَلَف نقديا بلاغيا يُؤْثر الخطاب النثري على الشعري ، إضافة إلى أن صاحبه يُقرُ صراحة أن فن الكتابة بحر لا ساحل له و أن الناثر عنصر فعال في هذا الضرب من الصناعة الفنية ، لذا فهو يحتاج في تصوره النقدي إلى تحصيل مؤهلات و أُطر و آلات كثيرة . و لقد قسمت هذا الإطار الثقافي الذي رسمه ابن الأثير للناثر إلى أربعة أطر فرعية : الإطار اللغوي ، التاريخي ، الأدبي ، الديني .

الكلمات المفتاحية : فن الكتابة – ثقافة الناثر – ابن الأثير – الناثر - المثل السائر – الخطاب النثري – القرن السابع الهجري.

Résumé :

Les livres de l'ancienne critique s'intéressaient à théoriser le discours littéraire en général, et de présenter des conceptions idéales concernant la maturation du discours prosaïque en particulier. Considéré selon ses différentes formes d'écritures comme le plus adéquat pour la civilisation et l'urbanisme, le plume a eu une nouvelle notion et l'écriture est devenue un art et un métier qui a ses bases et ses règles. Les anciens critiques ont ressenti le danger de cet art qui s'élève de son auteur à la place d'un écrivain et ministre, et ont réalisé la nécessité du prosateur/écrivain de s'armer des différentes sortes de culture qui est indispensable pour toute personne engagée dans la littérature.

J'ai prêté attention dans cette étude à Ibn al-Athir al-Jazari (décédé en 637 h) dans son travail « almthl alsaa'r fi a'db alkatb walshaa'r » étant donné que ce dernier est critique rhétorique et que le discours prosaïque influence sur le discours poétique. En plus, l'écrivain admet plainement que l'art de l'écriture est une mer sans bord et que le prosateur est un élément actif dans ce mode de travail artistique pour cela il a besoin dans son conception critique à obtenir des compétences, domaines et d'autres mécanismes. J'ai divisé ce cadre culturel décrit par Ibn al-Athir au prosateur en quatre sous domaines ; domaine linguistique, historique, littéraire, et religieux.

Mots clés :

Art de l'écriture –culture prosateur - Ibn al-Athir – Prosateur - almthl alsaa'r – Discours prosaïque-07 éme cycle.

لقد اعتبر ابن الأثير(ت 637هـ)(*) الأدب بشقيْه المنثور والمنظوم ، صناعة لها قواعدها وخصوصيتها، وأنّ "علم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام وأدلة الأحكام. "[1] ،فمن"البيان" يستمد الخطاب الأدبي- النثري خصوصًا- كينونتهُ ووجودهُ ، وبه يُحقق للأدب أدبيته، وجماليات التأثير والاستجابة في المتلقي(الوظيفة الأدبيّة أو الشعرية). وهذا ما جعل ابن الأثير يصبّ اهتمامه على علم البيان في موضوعه،وأصوله،وأدواته، وفروعه....،بل وجعل من تأليفه لكتاب "المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر " هدفًا لتعليم البيان بالكشف عن سرّ الفصاحة والبلاغة في روائع المنثور والمنظوم .

والواقع أن أكثر ما ذكره ضياء الدين بن الأثير من أصول فن الأدب لم يكن من أثر النظر ،وضروب التخيل لمُثلِ الفن الأدبي، كما كان شأن كثير من الآراء التي أثرت عن النقاد الذين قنّنوا لهذا الفن ووضعوا قواعده، فلقد كانت صفته الأساسية الاشتغال بالأدب واحترافه فن الكتابة الذي عدّ عَلمًا من أعلامه[2] .ومن المعلوم أنه كان كاتبًا بالدرجة الأولى، فقد ترك رسائل تنوعت بين إخوانية وديوانية، وربما يفوق عددها المائة [3] .

ولذلك كانت آراء ابن الأثير في صناعة الأدب عامة ،وصناعة الكتابة خاصة صادرة عن الفن الذي أعدّ نفُسه له،وعن التجربة التي عاش فيها حياته، فبِحكم موقعه من الزمن- مرحلة متأخرة- اطلّع على تجارب سابقيه فقد قرأ ضياء الذين أثار الكُتاب الذين ذاع صيتهم، وحلق نجمهم في سماء صناعة الكتابة ليقف على مناهجهم فيها،وينقد منها ما لا يراهُ جاريًا وفق مقاييسه التي يرتضيها، وهي المقاييس التي رأى أنها أكثر دلالة على إتقان الصنعة" .[4]فابن الأثير عاش في جوّ الكتابة والكُتّاب، كاتبٌ يقرأ كثيرًا، ويتعمق فيما يقرأ، ويبحث عن أسباب القوة والجمال ليرفع من شأن كتابته- خاصة بعد أن أحسّ بخطورة هذا الفن الذي ارتقى به إلى مرتبة الكاتب الوزير- ويُحقق المُثل التي رسمها لفن الكتابة، والتي زوّد نفسه بآلاتها وثقفها ببحر الثقافات الكثيرة والمتعددة. وهذا التكوين والتمّكن من فن الكتابة جعله يسخر أكبر جزء من كتابه "المثل السائر"لصالحه،ويضمنه نماذج كثيرة من إنشائه الرسالي، وجعله يعمل جادًا ليضع الكُتاب – وهو أولهم- على المسار الصحيح، والطريق المعبدّ الموصل إلى إتقان صناعة الكتابة ، سواء من جهــة الخطاب النثري كنص إبداعي ، أو الناثر* كعنصر فعّال في هذا الضرب من الصنـاعة الفنـية "فابن الأثير لم يترك الكتاب حيارى أمام صناعة الكتابة، بل بخبرته في الدواوين وعمله الدءوب على استخلاص قواعدها، وأركانها، ووضع أسسها ....ووضع دستورًا للكُتاب في صناعة الكتابة،ثم بيّن ما يحتاجه الكاتب، وما يجب عليه أن يعلمه "[5] .فيا ترى كيف كان تصوّر ابن الأثير للناثر كمنتج للخطاب النثري ومبدع له ؟، وما هي مؤهلات هذا الناثر في نظره؟ وما هي ألوان الثقافة التي ينبغي أن يتسلح بها ؟، وهل اتفق مع ما قالهُ سابقوه من النقاد عن ثقافة الناثر أم اختلف أم أضاف؟.

يعتبر ابن الأثير فن الكتابة صناعة واسعة، بحر لا ساحل له، وأنّ صاحبها يحتاج إلى تحصيل علوم كثيرة حتى ينتهي إليها .[6]وقد أحسن ابن الأثير التمهيد لهذه المعارف بالتنبيه على أهميتها للكاتب، وذكر الصعوبات التي يواجهها في تثقيف نفسه بكل ما يحتاج إلى معرفته، حتى يصبح مؤهلاً للخوض في كل فن من فنون الكتابة، فهو يقول: "اعلم أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر إلى آلات كثيرة وقد قيل: ينبغي على الكاتب أن يتعلق بكل علم،حتى قيل: كل ذي علمٍ يسوغ لهُ أن ينسب نفسه إليه فيقال : فلان النحوي ، وفلان الفقيه، وفلان المتكلم ، ولا يسوغ له أن ينسب نفسه إلى الكتابة فيُقال : فلان الكاتب، وذلك لما يفْتقر إليه من الخوض في كل فن. "[7]

ويتعجب ابن الأثير ممن يقف مدعيًا من أبناء زمانه لهذه الصناعة دون إعداد العدّة لها ويُقارن هذه الصناعة بالصناعات الأخرى، وكيف أنه لا يدعي أحد معرفتها إذا كان غير مختص بها، وغير عارف بخباياها قائلاً :"فسبحان الله ! هل يدّعي بعض هؤلاء أنه فقيه، أو طبيب، أو حاسب أو غير ذلك، من غير أنْ يحصّل آلات ذلك، ويتقن معرفتها ؟ فإذا كان العلم الواحد من هذه العلوم الذي يمكن تحصيلهُ في سنة أو سنتين من الزمان لا يدّعيه أحد من هؤلاء، فكيف يجيء إلى فن الكتابة، وهو ما لا تحصل معرفته إلاّ في سنين كثيرة، فيّدعيه وهو جاهل به "[8].

فابن الأثير مدرك- وبحق – حاجة الكاتب(=الناثر) الماسة إلى التسّلح بمختلف ألوان الثقافة وتزويد نفسه بكل آلة من آلاتها، فقد عني هو نفسه في البحث عن مظانها .

ولقد اشترط ابن الأثير قبل تحصيل هذه المعارف جميعها أن يكون الله قد ركّب في الأديب طبعًا قابلاً لهذا الفن"وملاك هذا كلّه الطبع،فإنّه إنْ لم يكن ثمَّ طبع فإنه لا تغْني تلك الآلات شيئا ومثال ذلك كمثل النار الكامنة في الزناد، والحديدة التي يقدح بها، ألا ترى أنه إذا لم يكن في الزناد نار لا تفيد تلك الحديدة شيئًا؟. " [9]فابن الأثير بقوة تصويره، وتشبيهه للطبع بالنار الكامنة في الزناد مبرزًا أن الحديدة (= الثقافة المكتسبة) لا تفيد شيئًا في غياب النار(= الطبع)[10]، يؤكد أنّ الجانب المعرفي لدى الكاتب المبدع، وإنْ كان مهمًا في الإبداع الأدبي، فإنه لا يمكن أن يخلق منه مبدعًا إذا لم يتوفر صاحبه على الحظ اللازم من الطبع، فإنْ افتقر إلى هذه الملكة فإن تلك الخبرات المكتسبة لا تغنيه شيئًا ، وهذا التصوّر قريب من إجماع النقاد السابقين على ضرورة توفر الطبع قبل الإلمام بتلك العلوم والمعارف.[11]

فالطبع هي الملكة التي لا يمكن أنْ يتم الإبداع بدونها، فهي تؤهل الإنسان للإبداع، وهو "لا يختلف في شيء عما نسميه حديثًا الموهبة، وهي الاستعداد الفطري- الفني في مجال الأدب- المركوز في الإنسان" [12]،وهذا ما يؤيدهُ كلام القدماء أنفسهم، فالنصوص الواردة عنهم بهذا الشأن تبين أنهم لم يقصدوا "بالطبع" الذي أطلقوا عليه اسم الطبيعة أحيانًا والقريحة، ثم الغريزة أحيانًا أخرى غير "الموهبة"[13]، لذلك ميّزوا بينهُ بوصفه قوة فطرية عند الإنسان، وبين العناصر المكتسبة كالثقافة والدربة، ولعل توكيد ابن الأثير- السابق- على أنّ من لا طبع لهُ لا تعينه ثقافتُه ولا علمه خير دليل على أنه لا يريد به سوى الموهبة بعدّها قوة منتجة للأدب.

ولقد استغرب ابن الأثير من اختلاف الطبائع في تعلّم العلوم قائلاً: "وكثيرًا ما رأينا وسمعنا من غرائب الطباع في تعلم العلوم ،حتى إن بعض الناس يكون له نفاذ في تعلّم علمٍ مُشْكِل المسلك صعب المأخذ، فإذا كُلّف تعلّم ما هو دونه من سَهل العلوم نَكَصَ * على عقبيه، ولم يكن له فيه نفاذ ." [14] ،وتفسير هذا الاستغراب أن الطبع يولد مع الإنسان ،أو بتعبير آخر إنه استعداد جبلي يهبه الله من عباده من يشاء، وفي أي مجال شاء، وهذا ما يؤكده ابن الأثير نفسه في مؤلف آخر بقوله :"واعلم أن صناعة تأليف الكلام من المنثور و المنظوم تحتاج إلى أسباب كثيرة، وآلات جمة وذلك بعد أنْ يركّب الله تعالى في الإنسان الطبع القابل لذلك المجيب إليه"[15] .

وقريبًا من نظرة الجاحظ في اختلاف الطبائع [16] نجد ابن الأثير يتحدث فيقول: " وأغرب من ذلك أن صاحب الطبع في المنظوم، يجيد في المديح دون الهجاء، أو في الهجاء دون المديح ، أو يجيد في المراثي دون التهاني، أو في التهاني دون المراثي، وكذلك صاحب الطبع في المنثور، هذا ابن الحريري** حضر ببغداد ،و وُقف على مقاماته قيل: هذا يُستصْلح لكتابة الإنشاء في ديوان الخلافة، ويحسُن أثره فيه فأُحضر، وكلّف كتابة كتاب فأُفْحِمَ، ولم يجر لسانه في طويلة ولا قصيرة فقال فيه بعضهم :

شيخ لنا من ربيعة الفَرَسِ ينتف عُثْنونَهُ * من الهوسِ

أنطقه الله بالمشَانِ **وقد ألجمه في بغدادَ بالخَرَسِ

وهذا مما يُعجَبُ منه ." [17]ونلحظ في نظرة ابن الأثير شيئا من التعمق عن تصور الجاحظ ، فهو يرى أن اختلاف الطبع لا يؤدي إلى التفاوت بين الصناعات فقط، بل يؤدي إلى التفاوت حتى داخل الصناعة(=الفن)الواحدة سواء أكانت نثرًا أم شعرًا ،"فانظر أيها المتأمل إلى هذا التفاوت في الصناعة الواحدة من الكلام المنثور."[18] ،ومثال ذلك أن الحريري كاتب المقامات أُفحم،ولم يكن له حظ في كتابة الإنشاء لأنه يفتقر للقوة الفطرية التي تؤهله إلى التفوّق والظهور في هذا الضرب من الصناعة،" ومن ثمة فالتمايز في هذه القوة- الطبع- عند المبدعين قوة وضعفًا هو الذي سيفرض التمايز بينهم فنيًّا"[19].

ويضيف ابن الأثير عن سبب كبوة الحريري في كتابة الإنشاء بعد الطبع بالتأكيد فيقول: " وسئلت عن ذلك فقلت: لا عجب لأنّ المقامات مدارها جميعهًا على حكاية تخرج إلى مخْلَص أمّا المكاتبات فإنها بحر لا ساحل له ، لأن المعاني تتجدد فيه بتجدّد حوادث الأيام ،وهي متجددة على عدد الأنفاس....والله يعلم ما اشتملت عليه من الغرائب والعجائب ، وما حَصَلَ في ضمنها من المعاني المبتدعة، على أنّ الحريري قد كتب في أثناء مقاماته رِقَاعًا في مواضع عِدّة، فجاء بها منحطة عن كلامه في حكاية المقامات، لا بل جاء بالغثّ البارد الذي لا نسبة لهُ إلى باقي كلامه فيها. " [20] نلمس في كلام ابن الأثير هذا نوعًا من المفاضلة بين فن الكتابة وفن المقامات نستنتج منها أنّ ابن الأثير يرى الكتابة لا متناهية ؛ شكلا ومضمونًا، فمن ناحية الشكل فإنها بحر لا ساحل له، أمّا المقامات" مدارها جميعِها على حكاية تخرج إلى مخْلَص"*، أما من ناحية المضمون فالله يعلم ما اشتملت عليه من الغرائب والعجائب، وما حَوته من المعاني المبَتدعة، أما المقامات فقد كتب الحريري "في أثناء مقاماته رقاعًا في مواضع عدة، فجاء بها منحطة عن كلامه في حكاية المقامات....".

فالطبع هو عمود العملية الإبداعية، وهو الذي يتحكم في توجيه المبدع إلى نظمٍ أو نثرٍ، وإليه يعود تفوّقه في غرض أو مجموعة من الأغراض في إطار الصناعة والفن الواحد، فإذا كان"الطبع" معيارًا لتمييز المبدّع الحقّ عن مفتعل الإبداع، فإنّ الآلات المكتسبة ستكون معيارًا للتمييز بين من تساوت حظوظهم من الطبع ،ومن ثم تأتي وتنبعث أهمية التحصيل والتسلّح بألوان الثقافة، والذي نادى به ابن الأثير كثـاني لبنةٍ بعد الطبع في قوله: "وعلى هذا فإنْ ركبَّ الله تعالى في الإنسان طبعًا قابلاً لهذا الفن فإنه يفتقر حينئذٍ إلى ثمانية أنواع من الآلات."[21]والنوع الثامن يخرج عن موضوعنا فهو مختص بالناظم دون الناثر. إذن فقط وضع ابن الأثير سبعة آلات –كما سماها هو –تمثل العدّة والعتاد للكاتب،والتي ينبغي أن يتزوّد بها، وهي بمثابة الإطـار الثقـافي الذي رسمـه ابن الأثير ،لا نقول للكاتب فحسب بل للناثر بصفة عامة، وأودّع فيه كل آلة من الآلات التي أوجب أن تكون طوْع يمين الناثر، والتي ثقفها هو نفسه، و سنحاول- من باب التنظيم والتبويب – أن نقسّم ثقافة الناثر، أو إطاره الثقافي إلى مجموعة من الأطر الفرعية اعتمادا على طبيعة (=نوع) الثقافة والمجال التي تنتمي إليـه.

1 - الإطار اللغوي:

أ- معرفة علم العربية من النحو والتصريف:يؤكد ابن الأثير على أهمية علم النحو ليُعلم الناثر بالحاجة الماسة إلى معرفته، فيقول :"أما علم النحو فإنه في علم البيان من المنظوم والمنثور بمنزلة أبجد في تعليم الخط، وهو أوّل ما ينبغي إتقان معرفته لكل أحدٍ ينطق باللسان العربي لِـيأمن مَعَرَّة اللحن." [22] ،فعلم النحو يمثلّ حجر الزاوية الأول في ثقافة الناثر، وإنْ كانت هذه الآلة مشتركة بين الشاعر والناثر ،فسنحصرها على الخطاب النثري موضوع الدراسة فقط .

فبِالنحو يستقيم معنى الكلام، ويُصان تأليفه من الفساد، واللحن، والانحلال ،خاصة أنّ التركيبة الاجتماعية في المجتمع الإسلامي لم تعد عربية خالصة يميزها الصفاء اللغوي الذي عُرفت به في سابق العهد، إنما أصبحت خليطًا من عرب وعجم، فتداخلت فيها الألسنة، وضاعت بينها السليقة العربية ،وشاع اللحن والخطأ، فأضحى الناثر ملزمًا بتعلّم النحو ليصون لسانُه من اللحن كما قال بذلك ابن الأثير .

وقد عمد ابن الأثير على أسلوب النَقض ليؤكد أهمية علم النحو، فهو في بداية حديثه يقول أن أكثر الكلام غير محتاج لعلم النحو لكي يستقيم، ويُفهم معناهُ، فالواضع لم يخص منه شيئًا بالوضع، بل جعل الوضع عامًا"ألا ترى أنك لو أمرت رجلاً بالقيام فقلت لهُ: "قُوْمْ" بإثبات الواو ولم تجزم لمَاَ اختل من فهم ذلك شيء؟ وكذلك الشرط لو قلت:"إنْ تَقُوْمْ أَقُوْمْ" ولم تجزم لكان المعنى مفهومًا، والفضلات كلها تجرى هذا المجرى كالحال والتمييز والاستثناء، فإن قلت: "جاء زيدْ راكبْ"و"ما في السماء قدْر راحة سحابْ"و"قام القوم إلا زيدْ"، فلزمت السكون في ذلك كله ولم تبيّن إعرابًا لما توقف الفهم على نصب الراكب،والسحاب ،و لانصب زيد." [23] ،ثم قام ونقض هذه الفكرة مؤكدًا على أهمية علم النحو بقوله :"لكن قد خرج عن هذه الأمثلة ما لا يُفهم إلاّ بقيود تقيدهُ، وإنما يقع ذلك في الذي تدل صيغَته الواحدة على معانٍ مختلفة."[24] وضرب على ذلك عدة أمثلة للتوضيح: كتقديم المفعول على الفاعل في قوله:"ضرب زيد عمرو"، فإنك إنْ لم تنصب زيدًا وترفع عمرا كعلامة تبيّن أحدهما على الأخر لا يفهم ما أردت، وعلى هذا ورد قوله تعـالى: (**إِنَّمَا** يَخْشَى اللَّهَ مِنْ

عِبَادِهِ الْعُلَمَاء)[25]، وكذلك أضاف أنه لو قال قائل: "ما أحسن زيد" دون أن يبيّن الإعراب في ذلك، لكنه لو بيّن الإعراب فقال: ما أحسن زيدًا !، وما أحسن زيْدٍ ؟ وما أحسن زيدُ ، علمنا أن غرضه في المثال الأول التعجب، والثاني الاستفهام،والثالث النفي. [26]فوجب بذلك معرفة النحو، إذً كان ضابطًا لمعاني الكلام، حافظًا لها من الاختلاف .

كما يشير ابن الأثير إلى أمر النحو في أول وضعه فيقول:"و أوّل من تكلّم في النحو أبو الأسود الدؤلي،وسبب ذلك أنْ دخل على ابنة له بالبصرة،فقالت له:يا أبت،ما أشدُّ الحر متعجبة،ورفعت"أشد"فظنها مستفهمة، فقال:شهر ناجر، فقالت:يا أبتِ إنما أخبرتك ،ولم أسألك." [27]

وكان لابن الأثير نظرة صائبة في محاولة تفريقه بين مهمة البياني ، ومهمة كلٍّ من النحوي واللغوي، فهو يقول في ذلك أن موضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة، ويسأل صاحب هذا العلم عن أحوالهما اللفظية والمعنوية، ويشترك هو والنحوي أو اللغوي في أنّ النحوي ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي ، وتلك دلالة **عامة** أما صاحب علم البيان، فينظر في فضيلة تلك الدلالة، التي هي دلالة **خاصة**، والمراد بها الكلام على هيئة مخصوصة من الحُسن. فللبياني نظرة فوق نظرة النحوي تختص بالعبارة الأدبية أو الأسلوب الفني،والكشف عن أسرار الفصاحة والبلاغة فيه . [28]

أمّا التصريف الذي يقول عن مفهومه ابن الأثير:"إنما هو معرفة أصل الكلمة، وزيادتها وحذفها ،وإبدالها ." [29]فيأخذ فيه مأخذ علم النحو في إثبات مشروعيته كآلةٍ لغوية ينبغي للناثر أنْ يتقنها، فهو يقول:"فإنْ قيل : أمّا علم النحو فمُسَلّم إليك أنّه تجب معرفته، لكن التصريف لا حاجة إليه ،....ولنضرب لذلك مثالاً كيف اتفق ، فنقول: إذا قال القائل: "رأيت سْرداحًا* " لا يلزمهُ أن يعرف الألف في هذه الكلمة زائدة هي أمْ أصلية ، لأن العرب لم تنطق بها إلا كذلك، و لو قالت"سِرْدَحًا" بغير الألف لما جاز لأحدٍ أنْ يزيد الألف فيها من عنده، فيقول " سِرْداحًا "، فعُلم بهذا إنما ينطق بالألفاظ كما سُمعت عن العرب من غير زيادة فيها ولا نقص وليس يلزم بعد ذلك أن يَعْلَمَ أصلها و لا زيادتها. " [30] إذن فهذه الألفاظ نقلت عن العرب على ما هي عليه من غير زيادة ولا نقصٍ ،لا يحتاج فيها الناثر إلى معرفة أصل الكلمة ، فالمعنى فيها مفهوم، والمبنى صحيح غير فاسد، فهو صادر عن العرب الأقحاح ،وبالتالي لا يكون الناثر في حاجة لعلم الصرف.

ولقد استدرك ابن الأثير هذا الإجحاف في حقّ التصريف ، بنقض أول ما ارتأى إليه ليؤكد على الحاجة لهذا العلم جنبًا إلى جنب مع علم النحو في قوله: "و أما التصريف فإنه إن لم يكن عارفًا لم تفسد عليه معاني كلامه، وإنما تفسد عليه الأوضاع وإن كانت المعاني صحيحة." [31] إذن قد يكون معنى الكلمة مفهومًا، ولكن مبناها فاسدًا لغياب علم الصرْفِ؛ فهو معرفة أصل الكلمة .

ويفسّر هذه الأهمية للتصريف بقوله عن الكلمة أنها"إذا ما أرُيد تصغيرها، أو جمعها، أو النسبة إليها، فإنه إذا لم يَعْرِفِ الأصل في حروف الكلمة وزيادتها، وحذفها، وإبدالها يضلّ حينئذٍ عن السبيل ،وينشأ من ذلك مجال للعائب والطاعن." [32] فإذا قام النحوي- وكان جاهلاً بعلم الصرف- بتصغير لفظه"اضطراب"قال :"ضُطِيْرب"، ولا يلام على جهله بذلك لأن كلاًّ من النحو والتصريف علم منفرد برأسِه ، وإن كانت هناك علاقة تكامل بينها،[33]فالنحوي لا يعلم"أن الطاء في(اضطراب)مبدّلة من تاء، وأنه إذا أريد تصغيرها تعاد إلى

الأصل التي كانت عليه،وهو التاء فيقال: (ضُتيْرب) فإن هذا لا يعلمه إلاّ التصريفي". [34] فمن العجب أن يُقال أن الناثر لا يحتاج إلى معرفة التصريف "ألم تعلم أن نافع بن أبي نعيم*- وهو من أكْبر القراء السبعة قدرًا، وأفخمهم شأنًا- قال في "معايش""معائش" بالهمزِ؟ ولم يعلم الأصل في ذلك فأُخذ عليه، وعيب من أجله ومن جملة من عابه أبو عثمان المازني، فقال في كتابه التصريف:إنّ نافعًا لم يدرِ ما العربية ."[35]فعلى الناثر المعرفة العميقة والواعية باللغة، وتوابعها من العلوم اللغوية كالنحو والتصريف.

ب- معرفة ما يحتاج إليه من اللغة :وهو المتداول المألوف استعماله في فصيح الكلام غير الوحشي الغريب، و لا المستكره المعيب حيث يقول ابن الأثير :"وأحسن الألفاظ ما كان مألوفًا متداولاً، لأنّه لم يكن مألوفًا متداولا إلا لمكانِ حسنهِ- وقد تقدّم الكلام على ذلك في باب الفصاحة -،فإن أرباب الخطابة والشعر نظروا إلى الألفاظ، ونقبوا عنها، ثم عدلوا إلى الأحسن منها فاستعملوهُ، وتركوا ما سواه، وهو أيضًا يتفاوت في درجات حسنه." [36]

وقد عرض ابن الأثير للوحشي من الألفاظ الذي أنكرهُ النقاد، وأجمعوا على إخلاله بالفصاحة ،لكنه يرى أن هذا الوحشي خفيّ على جماعة المنتمين إلى صناعة النظم والنثر، وظنّوهُ المستقبح من الألفاظ وليس كذلك ،ويفسّر فيقول:"ذلك أنه منسوب إلى اسم الوحش الذي يسكن القفاز، وليس بأنيس، وكذلك الألفاظ لم تكن مأنوسة الاستعمال ، وليس من شرط الوحش أن يكون مستقبحًا، بل أن يكون نافرًا لا يألف الإنس فتارة يكون حسنًا، وتارة يكون قبيحًا."[37] والوحشي عنده ينقسم إلى قسمين :

أحدهما: الوحشي الذي جاءت إليه هذه الصفة من غرابته ، وهو يختلف باختلاف النَسْب والإضافات ، ويطلق عليه الغريب الحسن.

أما القسم الثاني من الوحشي فقبيح ، والناس في استقباحه سواء ، لا يختلف فيه عربي بادٍ ولا قرويّ متحضّر .

وهكذا تنقسم الألفاظ عند ابن الأثير ثلاثة أقسام: قسمان حسنان، وقسم قبيح [38].

- ما تداول استعماله الأول والأخر من زمن القديم إلى زماننا،ولا يطلق عليه بالوحشي .

- ما تداول استعماله الأول دون الآخر، ويختلف في استعماله بالنسبة الزمن وأهله ، وهذا هو الذي لا يعاب استعماله عند العرب، لم يكن عندهم وحشيًا، وهو عندنا وحشي ، وقد تضمّن كلٌّ من القرآن ،والحديث النبويّ كلمات معدودة يطلق عليها"غريب القرآن"،و"غريب الحديث" وهذان النوعان الأول والثاني يدخلان ضمن الحَسَن من الألفاظ، أما النوع الثالث فهو الوحشي الغليظ[39]: ويسمى أيضًا المتوعر ،وليس وراءه في القبح درجة أخرى، يُعاب استعماله ، ولا يستعمله إلا أجهل الناس ممن لم يخطر ببالِه شيء من معرفة هذا الفن النثري ،فإن ورد بدا فيه عيبان؛ أنه ثقيل على السمع، وغريب الاستعمال.[40]

فعلى الناثر أن يعرف ما كان مألوفًا متداولاً بين أرباب صناعة الكتابة،ويترك الوحشي الغريب، والمستكره المعيب، لأنه يخرج عن باب الكلام الفصيح الذي حدّد مفهومه بوضوح في قوله :"إن الكلام الفصيح هو الظاهر البيّن ، وأعني بالظاهر البيّن أن تكون ألفاظه مفهومة لا يحتاج في فهمها إلى استخراج

من كتاب لغُةٍ ، وإنما كانت بهذه الصفة لأنها تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم و النثر ، دائرة في كلامهم ."[41]

وكذا يفتقر الناثر إلى معرفة الأسماء"المترادفة"؛ وهي إتحاد المسّمى، واختلاف أسمائه كقولنا الخمر والراح والمدام، والأسماء"المشتركة" ليستعين بها على استعمال التجنيس في كلامه؛ وهي إتحاد الاسم، واختلاف المسميات كالعين ؛فإنها تطلق على العين الناظرة ، وعلى ينبوع الماء، وعلى المطر إلا أن الألفاظ المشتركة تفتقر في الاستعمال إلى قرينة تخصصّها. [42]

فالناثر يحتاج إلى معرفة عدة أسماء لما يقع استعماله في النثر والنظم"ليجد- إذا ضاق به موضعٌ في كلامه بإيراد بعض الألفاظ فيه- العدُول عنه إلى غيره، ومما هو في معناه".[43]

2 - **الإطار التاريخي** :

لما كان الخطاب النثري يستمد مادته من الحياة، و"يعدّ اختيارا لإحدى شرائح الحياة أو أحد موضوعاتها ليكون محورًا للعمل، وحقلاً خصْبًا للإبداع ، وعندئذٍ يستعين المبدّع بكل ملكاته و أدواته في صياغة العمل جماليا. "[44]فإنّ على الناثر أن يحيط بالأحداث التاريخية، والاجتماعية وأخبار العرب ،وأنسابها....حتى يُحسن تصويرها،ولا يتجاوز حقائقها المألوفة ،لذا نجد جانب الثقافة التاريخية للناثر يضم نقطتين :

أ- معرفة أمثال العرب وأيامهم، ومعرفة الوقائع التي وردت في حوادث خاصة بأقوامٍ :يبين ابن الأثير شدّة حاجة الناثر إلى معرفة أمثال العرب، والتي يعرّفها بـ "القول الوجيز المرسَلُ ليُعمل عليه. "[45] ،لأن العرب وضَعَتْ أمثالها بمناسبة محددة لتصبح كالعلامة لتلك المناسبة، ومن ثم فلا تستخدم هذه الأمثال إلا في مثل ما استخدم فيه من قبل، حتى تكون متوائمة متطابقة."وذلك أنّ العرب لم تضع الأمثال إلا لأسباب أوجبتها،وحوادث اقتضتها، فصار المثل المضروب لأمرٍ من الأمور عندهم كالعلامة التي يُعرف بها الشيء، وليس في كلامهم أوجز منها، ولا أشدّ اختصارًا".[46]فمن لم يعرف من الناثرين ذلك، وأخذ المثل على حقيقته من غير النظر إلى القرائن المنوطة والأسباب التي قيل من أجلها، وقع في الخطأ وتملكَه العجز على استخدام هذه الأمثال وأضحك عليه غيره"وذاك أن المثل لهُ مقدمات وأسباب ،قد عُرفت وصارت مشهورة بين الناس معلومة عندهم".[47] وهذا لا يقتضي- كما قال ابن الأثير- أن يعرف كل الأمثال الواردة عنهم فإنّ منها ما لا يحسن استعماله، كما أن من ألفاظهم أيضًا ما لا يحسن استعماله .

كما أن ابن الأثير ينصح المتصدّي لهذا الفن أن يقتدي به، ويسلك مسلكه الذي قال عنه:"كنت قد جردت من كتب الأمثال للميداني أوراقًا خفيفة تشتمل على الحسن من الأمثال الذي يدخل في باب الاستعمال"[48]،لكن الإطلاع على الأمثال وحدها لا تِكفي كثقافة تاريخية للناثر، فأيام العرب تتنوع وتتشعب،فمنها أيام فخِار، ومنها أيام محاربة ، ومنها أيام منافرة وغير ذلك، والناثر- كاتبًا أو خطيبًا- لا يخلو من الانتصاب لوصف يوم مماثل، أو مشابهٍ الأحوال من تلك الأيام[49]،"فإذا جاء-الناثر-بذكر بعض تلك الأيام المناسبة لمراده الموافقة لهُ، وقاس عليه يوْمَهُ فإنه يكون في غاية الحسُن والرونق هذا لا خفاء به " [50].

وكذلك للوقائع التي وردت في حوادث خاصة بأقوامٍ مَنْزِلة عند الناثر في معرفته للتاريخ "فإنها كالأمثال في الاستشهاد بها"[51] ،ويخبرنا ابن الأثير عن واقعة "بيعة الحديبية"، وقول رسول-ρ- وهو يضرب يده الشمال على اليمين- لما أرسل عثمان τ إلى مكة في حاجة ولم يحضر البيعة-:"هذه عن عثمان، وشمالي خير من يمينه. "وكيف أنه استعمل هذا في جملة كتابٍ(=رسالة) قائلاً :"فقلت:ولا يعدّ البِرّ بِرّا حتى يُلحِق الغيث بالحَصُور، ويصل من لم يَصِلهُ بجزاءٍ ولا شكُور، فزِنة الغائب بالشاهدِ من كرَمِ الإحسان، ولهذا نابتْ شمال رسول الله ρ عن يمين عثمان "[52].

ب- معرفة الأحكام السلطانية :من الإمامة ، والإمارة، والقضاء، والحِسْبة [53]*وغير ذلك مما يحتاج إليه الكاتب في تقليدات الملوك والأمراء وغيرهم ممن يجرى مجراهم؛ فيجب على الكاتب أن يعيّ ويعرف معرفة تامة هذه الأحكام السلطانية، وكل ما يتعلق بأمور الدولة ،وإن لم يكن "عارفًا بالحُكم في هذه الحوادث، واختلاف أقوال العلماء فيها- الإمامة مثلا-، وما هو رخصةٌ في ذلك وما ليس برخصة، لا يكتب كتابًا ينتفع به."[54] فعدم العلم بهذه الأحكام والأمور يعيب كتابه النثري وليس معنى هذا أن ابن الأثير يُطالب الكاتب بأنْ يكون الكتاب مقصورًا على فقه محض،لأنه على حدّ رأي ابن الأثير كتاب بلاغي" يُكتب في هذا المعنى مشتملاً على الترغيب والترهيب والمسامحة في موضع،والمحاققة في موضع، مشحونًا ذلك بالنكت الشرعية المبرزة في قوالب البلاغة والفصاحة."[54]

3- - الإطار الأدبي (الفني):

الإطلاع على كلام المتقدّمين من المنظوم والمنثور: فإطلاع الناثر على تأليفات من تقدّمه من أرباب الصناعة المنظومة منه والمنثورة، والتحفظ للكثير منها يكوّن لديه الإطار الفني الذي يسمح لهُ بأن تتلاقح الأفكار ، وتشحذ القريحة، وتذكى الفطنة"فإن في ذلك فوائد جمة، لأنه يُعلم منه أغراض الناس ونتاج أفكارهم، ويُعرف به مقاصد كل فريق منهم، وإلى أين ترامت به صنعته في ذلك."[55] وهذا الإلمام بالأصول العامة لصناعة الأدب، والوقوف على مذاهب الأدباء .... يجعل صاحب الخطاب النثري"عارفًا بما تصير المعاني التي ذُكِرَت وتعب في استخراجها كالشيء الملقى بين يديْه ، يأخذ منه ما أراد، ويترك ما أرادهُ، وأيضاً فإنه إذا كان مطلّعًا على المعاني المسبوق إليها قد ينقدح له من بينها معنى غريب لم يسبق إليه ."[56]وخير دليل على سعة وحُسن الإطلاع "المثل السائر" ذاته ،والذي تطالعنا ثناياه على أسماء كثيرة من الكتب التي قرأها ابن الأثير وفقهَ منثورها ومنظومها، وبنَى خطابه النثري في مكاتباته على حلّ أبياتها الشعرية، فهو يقول:"من أحبّ أنْ يكون كاتبا أو كان عنده طبع مجيب، فعليه بحفظ الدواوين ذوات العدد، ولا يقنع بالقليل من ذلك ثم يأخذ في نثر الشعر من محفوظاته...ولا يزال على ذلك مدة طويلة حتى يصير لهُ ملكة." [57] فابن الأثير جعل من حفظ المنظوم مادة للمنثور، وركز على إبراز أهمية الدُربة والمران في الحياة الفنية للكُتاب المبتدئين في الإبداع الأدبي.

4 - الإطـار الـديني :

أ- حفظ القرآن الكريم : فحفظ القرآن الكريم ، والتدّرب باستعماله، وإدراجه في مطاوي الكلام مما ينبغي على صاحب الصناعة أن يكون عارفًا به ،لأنّ فيه فوائد كثيرة فتضمين الخطاب النثري بآيات من القرآن الكريم في أماكنها اللائقة بها،ومواضعها المناسبة لها يلُبس الكلام حلّة من الفخامة والجزالة والرونق .

كما أن الناثر إذا وقف على مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة المودعة في تأليف القرآن الكريم اتخذه بحرًا يستخرج منه الدّرر والجواهر، ويرصع بها خطـابه النـثري، و كما قال ابـن الأثير:

"وكفى بالقرآن الكريم وحده آلة وأداة في استعمال أفانين الكلام".[58]

فابن الأثير ينص على حفظ القرآن الكريم، وحلّ آياته،فيجعله مادة خصبة لخطابه النثري يقول :"واعلم أن المتصدي لحلّ معاني القرآن يحتاج كثرة الدرس، فإنه كلما ديم على دراسة ظهر من معانيه ما لم يظهر من قبل."[59] بل لا يتوانى في أن يجعل من القرآن ركنًا في إبداع أيّ كتاب بلاغي، فهو يقول في الركن الخامس من أركان الكتابة:" أنْ لا يخلو الكتاب من معنى من معاني القرآن الكريم والأخبار النبوّية، فإنها معدن الفصاحة والبلاغة "[60]فهو تجارة لا تبور، ومنبع لا يغور وكنز يرجع إليه، وذخر يعوّل عليه . [61]

ب- حفظ الأخبار النبوّية :فليحفظ الناثر من هذه الأحاديث النبوّية ما يحتاج إليه في صناعة الكلام، فإن الأمر يجري في ذلك مجرى القرآن الكريم،وكلاهما تجارة لا تبور، ومنبع لا يغور فالأخبار النبوية كالقرآن في حلّ معانيها إلا أن الأحاديث النبوية كثيرة لا تنحصر، ولو انحصرت فمنها ما يدخل في الاستعمال، ومنها من لا يدخل في الاستعمال ، وليست كالقرآن لهُ حاصر وضابط،وكل آياته تدخل في الاستعمال.[62]لذا يسّر ابن الأثير بثقافته الواسعة ونظره الثاقب على الكاتب كي لا يضلّ ويتشعب عليه الطريق، بأن حدّد الكتب التي يجب على من أراد أن يسبر أغوار الحديث أن يقرأها فقال: "إنك أول ما تحفظه من الأخبار هو كتاب "الشَهاب" فإنه كتاب مختصر وجميع ما فيه يستعمل لأنه يتضمّن حِكَمًا وآدابا، فإذا حفظته وتـدّربت عليه كما أريتك ها هنا حصل عندك قوة على التصرّف والمعرفة بما يدخل في الاستعمال ومالا يدخل وعند ذلك تتصفح كتاب صحيح البخاري،ومَسْلِم، والموطّأ،والترْمِذِيّ، وسنن أبي داوُد، وسُنن النسائي وغيرها من كتب الحديث." [63]

وعن الجهود المضنية التي بذلها هو نفسه في هذا المجال مشيرًا إلى أهمية هذه الأخبار يقول : "وكنت قد جردت من الأخبار النبوية كتابًا يشمل على ثلاثة آلاف خبر كلها تدخل في الاستعمال،ومازلتُ أواظبُ مطالعته مدة تزيد على عشر سنين ، فكنت أُنهي مطـالعته في كل أسبوع مرّة ،حتى دار على ناظـري ما يزيد خمسمـائة مرة ، وصار محفوظًا لا يشذّ عني منه شيء. "[64] و في هذا السياق يقول محمد مندور: "فقراءة النصوص الجيدة وحفظ خيارها هنا- كما قلنا- الوسيلة الفعالة لإتقان صناعة الأدب بل الوسيلة التي لا يمكن أنْ تغني عنها أية دراسة لغوية أو نقدية ." [65]

كما أكدّ ابن الأثير بعد استكماله إطار الناثر الثقافي ذا الطابع الموسوعي على ضرورة العناية بثقافة الأوساط الاجتماعية التي يعيش فيها الناثر ويكتب لها، فقال : "وبالجملة فإن صاحب هذه الصناعة يحتاج إلى التشبث بكل فنٍّ من الفُنون ،حتى إنه يحتاج إلى معرفة ما تقوله النادبة بين النَّساءِ ،والماشطة عند جَلْوَةِ

العَرُوس ،وإلى ما يقوله المنادي في السوق على السِّلعة، فما ظنّكَ بما فوق هذا؟ والسبب في ذلك أنه مُؤهل لأن يهيم في كل وادٍ فيحتاج أن يتعلق بكل فنٍّ . "[66]

وهكذا فالإطار الثقافي عند ابن الأثير بالإضافة إلى ما فيه من شمولية فإنه يزاوج بين الثقافة العربية، والتاريخية، والإسلامية(= الدينية)، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا:ما هي المعايير والأسس التي اعتمدها ناقدنا ابن الأثير في ترتيبه للآليات والأدوات التي ينبغي أن يتزود بها الناثر ؟ وهل هناك قيمة معينة مرتبطة بالترتيب الذي أوردهُ ابن الأثير لهذه الأسس المكتسبة ؟ .

في الحقيقة ليس في دراسة ابن الأثير ما يشير إلى أن قضية الأسس والمعايير كانت تمثل إشكالية مهمّة في بحثه لرصيد الناثر المعرفي ، لذلك نجد الإجابة جاهزة عن سؤالنا،ولكن هذا لا يعني -بطبيعة الحال – أن ترتيب ابن الأثير للأدوات السبعة كان عشوائيًا واعتباطيا، فقد يتأتى هذا الترتيب وفق الأهمية، باعتماد منهج استقرائي من اللغة كلبنةٍ أولى للخطاب وصولاً إلى القرآن الكريم والحديث النبوي على اعتبارهما النموذج الكامل، والمثال المحتذى، أو قد عمد ابن الأثير هذا الترتيب من باب التنظيم لا غير.

وإن كان ابن الأثير قد جعل الطبع أساس الإبداع النثري،وميّز بينه وبين الآلات المكتسبة ممثلة إطارًا ثقافيا للناثر، فإنه اشترط صقله وتهذيبه بالدُربة، والمران، والممارسة قائلا: " فإذا أكمل صاحب هذه الصناعة معرفة هذه الآلات ، وكان ذات طبعٍ مجيبٍ، وقريحة مُواتية، فعليه بالنظر في كتابنا هذا والتصفح لما أودعناهُ من حقائق علم البيان." [67] فالسبيل الموصل والحلّ الأنجع في رأيه " أن يُكثر الإدمان ليلاً ونهارًا، ولا يزال على ذلك مدة طويلة حتى يصير لهُ ملكة. "[68]،فهذا الإطار المعرفي الواسع لا يؤتي ثمارًا طيبة في مجال إبداع النصوص النثرية الفنية إذا ترك صاحبهُ الدرُبة؛ فهذه المرحلة- التي تدخل جنبًا مع الثقافة ضمن الأسس المكتسبة- لازمة في الحياة الفنية للناثرين، إذا أن النضج الفني للناثر لا يحدث مصادفة ،إنما تخضع مَوْهبتهُ في نموها إلى التدرّج من توفر ملكة الإبداع والإطار الثقافي المناسب إلى المران ،والدربة، والممارسة" وابن الأثير كان على وعي بأن الغاية من سلوك هذا الطريق (الدربة) ليست تحويل الإبداع الأدبي إلى مجرد صناعة جوفاء، لا يرقى فيها عمل المبدعين عن التقليد والاحتذاء ، إنما هي مرحلة ينعتقُ المبدع في أخرها من سلطان النماذج المقلّدة، ليستقل بشخصيته الفنية التي تميزهُ عن غيره من المبدعين ." [69]

ويوضح ابن الأثير فكرته ضمنًا في حديثه عن أهمية الذوق وتربيته قائلاً :"اعلم أيها الناظر في كتابي أن مدار البيان على حكم الذوق السليم الذي هو أنفع من ذوق التعليم، وهذا الكتاب وإنْ كان فيما يليه إليك أستاذًا وإذا سألت عما ينتفعُ به في فنّه قيل لك هذا ! ،فإنّ الدربة والإدمان أجدى عليك نفعًا ، وأهدى بصرًا وسمعًا....وما مثلي فيما مهدتُهُ لك في هذا الطريق إلا كمن طَبَعَ[*] سيفًا، ووضعهُ في يمينك لتقاتل به، وليس عليه أن يخلق لك قلبًا،فإنّ حمل النصال غير مباشرة القتال".[70]

فكأن ابن الأثير قدّم المادة الأولية (= الخام)، وعلى المبدع صقلها بِلمسته، وحسّه الجمالي الخاص مع انتحاء سمت ابن الأثير وغيره من أساتذة هذا الفن، والتمرّس بأدبهم.وهنا نلمس في "مسألة الدربة " نقطة التقاء مع نظرية الإبداع في النقد الحديث، بوصفها مرحلة ضرورية في اكتمال أدوات المبدعين، ونضج ملكاتهم الإبداعية . [71]

وبالإضافة إلى هذه النقطة، والتي تحسب لابن الأثير ، فإنّ محاولته تعدّ- في نظرنا- أنضج وأكمل محاولة مقصودة لتأسيس إطار ثقافي للناثر في نقدنا العربي القديم،فلقد تمكن ابن الأثير بحكم موقعه من الزمن- متأخر- ،وبحكم إطلاعه على تجارب سابقيه – والتي أفاد منها بطبيعة الحال- ، وبحكم وظيفته ككاتب من التنظير لعنصر "الناثر"كمقوّم أساسي لهذا الضرب من صناعة الخطاب الأدبي .و لكن على الرغم من أنّ حصر الناقد ابن الأثير الجزري للأدوات و الآلات التي ينبغي للناثر أنْ يتزود بها يعدّ أشمل ما وصل إلينا إلا أنها لا تعكس كل الجوانب،والنواحي التي كُتبت في أدبنا العربي القديم لغياب بعض النواحي كالناحية الأخلاقية والجسمية [72]....عند الناثر، ولكي لانُجْحف حق ناقدنا ابن الأثير الذي ذهب البعض إلى عده مجرد ناقل لأفكار سابقيه ، مجترا لآرائهم لكونه جاء في مرحلة متأخرة قد استهلك فيها النقد و البلاغة و أدرك أواخر القرن السادس و بداية القرن السابع للهجرة ، نقول أن مقصد ابن الأثير من وضع هذا الإطار هو الذي يجيب عن هذا المأخذ، فقد يكون مقصدهُ – في نظري- ليس حصر جميع الجوانب والنواحي التي تخص الناثر ، بل التركيز على الإطار الثقافي (=العلمي) فقط على عدّه البؤرة المركزية لدى الناثر كمُبدّع و منتج للخطاب النثري .

الهوامـــــــش :

(*) هو أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري ، الملقب بضياء الدين . ولد بجزيرة ابن عمر من أعمال الموصل بالعراق ، لا يعرف تاريخ مولده بالتحديد و لكنه و لد في النصف الثاني القرن السادس الهجري تقريبا حوالي 558 هــجرية . ينظر الأعلام : خير الدين الزركلي ، ط2 ، دون مكان و تاريخ ،ج7 ، ص 354

(1)المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر : ابن الأثير،تحقيق :أحمد حوفي وبدوي طبانة ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة (د.ت)35/1.

(2) ينظر المثل السائر: مقدمة التحقيق، 09/1.

(3) ينظر: رسائل ابن الأثير، تحقيق: أنيس المقدسي، طبع بمساعدة المجمع العلمي العراقي، (د ط)،(د ت)،ص:7-8.

(4) المثل السائر: مقدمة التحقيق ،09/1.

(*) الناثر: مصطلح يطلق على مؤلِف الخطاب النثري، وقد استعمله ابن الأثير ليُجمل الخطيب إلى جانب الكاتب في أرائه، ففي تنظيره للخطاب النثري لا نستطيع الجزم بأنه يقصد الكاتب فقط- وإن كانت مهنته ككاتب ديوان تخوّل له البدء بنفسه- فإننا نجده يجمع مبدّعي الخطاب النثري تحت مصطلح الناثر: ينظر المثل السائر: 44/1-72/1،وقد يعوض مصطلح الكاتب بالخطيب ، ينظر:73/1-65/1.وفي رأيي لا يمكن أن نقول عن هذا عدم استقرار للمصطلح عند ابن الأثير، بل إدراك تام بالتشابه والتشاكل بين أجناس الخطاب النثري ،والذي قال به فيما قبل أبو هلال العسكري ، ينظر الصناعتين ص:154.وعلق عليه في النقد الحديث محمد غنيمي هلال بقوله :"أن كثيرا مما ذكروه في باب الرسائل مكرورا مع ما أوردوه في الخطابة". النقد الأدبي الحديث ،ص: 203.

(5) صناعة الكتابة عند ضياء الدين: عبد الواحد حسن الشيخ،مكتبة الإشعاع الفنية ، مصر، ط1 ، 1999ص:60.

(6) ينظر المثل السائر:64/2.

(7) المثل السائر:40/1 ، ومثل هذا حديث ابن سلام الجمحي عن ثقافة الناقد في قوله:" للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات..." طبقات فحول الشعراء، تحقيق:محمود محمد شاكر،مطبعة المدني ، القاهرة ، (د.ت)،ص:5-6.

(8) المثل السائر:64/2.

(9) المثل السائر: 40/1.

(10) وهذا التشبيه ضمنّه معنى بيت قاله علي بن الجهم- وقد يدرج ضمن حل الأبيات الشعرية-:

والنار في أحجارها مخبوءة ليست تُرى إن لم يثرها . ينظر أدب الكتاب : للصولي ،ص:15.

(11) ينظر أدب الكاتب لابن قتيبة، تحقيق علي فاعور ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط1 ، 1988،ص:16، ورسالة ابن المدبر ضمن جمهرة رسائل العرب في العصور العربية الزاهرة :أحمد زكي صفوت ، المكتبة العلمية ، بيروت ط1 (د.ت) 178/4، وأيضا الصناعتين لإبي هلال العسكري ، تحقيق : مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،ط2 ، 1989، ص :30وص:153.

(12) نظرية الإبداع في النقد العربي القديم: عبد القادر هني، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1999 ،ص:115.

(13) مثلا:- لفظ القريحة= الطبع: ينظر الصناعتين ص:30 ،والرسالة العذراء ضمن الجمهرة :178/4، وأدب الكاتب ص :16وغيرها. – لفظ الطبيعة = الطبع=الموهبة: ينظر البيان والتبيين البيان والتبين للجاحظ، تحقيق : عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ،(د.ت):208/1.

(*) نكص على عقبيه : رجع عما كان عليه في السابق.

(14) المثل السائر: 40/1-41.

(15) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور: لابن الأثير، تحقيق : مصطفى جواد وجميل سعيد ، مطابع المجمع العالي العراقي ، 1965ص:06.

(16) يقول الجاحظ:"أن يكون له طبع في تأليف الرسائل والخطب والأسجاع، ولا يكون له طبع في قرض بيت شعر، ومثل هذا كثير جدًا."البيان والتبيين:208/1.

(**) الحريري : هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد عثمان الحريري البصري ، كان أحد أئمة عصره ،رزق الحظوة التامة في عمله المقامات، وكانت ولادته سنة 446هـ، وتوفي سنة عشر وقيل خمس أو ست عشر وخمسمائة بالبصرة.

(*)العثنون : اللحية ، ولقد كان الحريري مولعًا بنتف لحيته عند الفكرة .

(**) المشان: بفتح الميم والشين: بلدة بعد البصرة كثيرة النخل ، وكان أهل الحريري منها.

(17) المثل السائر:41/1-42.

(18) المثل السائر:43/1.

(19) نظرية الإبداع في النقد العربي القديم: عبد القادر هني،ص:112.

(20) المثل السائر:42/1.

(*) وقد أخذ على ابن الأثير تنقصّه من المقامات الحريرية على يد القلقشندي، مثلا ينظر الثابت والمتحول : لأدونيس ، دار العودة ، بيروت ط4 ،1983 ص:27.

(21) المثل السائر:43/1.

(22) المثل السائر:44/1.

(23) المثل السائر:44/1-45.

(24) المثل السائر:45/1.

(25) سورة فاطر،آية:28.

(26) ينظر : المثل السائر:45/1.

(27) المثل السائر:46/1.

(28) ينظر المثل السائر:39/1-40.

(29) المثل السائر:48/1.

(*) السرداح: الناقة الطويلة، أو العظيمة، أو السمينة، أو القوية ....

(30) المثل السائر:48/1.

(31) المثل السائر:49/1.

(32) المصدر نفسه:49/1.

(33) ينظر المثل السائر:49/1-50.

(34) ينظر المثل السائر:50/1.

(*) نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم القارئ إمام أهل المدينة ، قال فيه ابن عدّي: لم أجد في حديثه منكرًا. توفي سنة 169هـ.

(35) المثل السائر:51/1.
(36) المثل السائر: 228/1.
(37) المثل السائر:228/1.
(38) ينظر المثل السائر:228/1-229.
(39) ينظر المثل السائر:لابن الأثير ،234/1.
(40) ينظر المثل السائر:234/1.
(41) المثل السائر:114/1.
(42) ينظر المثل السائر:56/1-60.
(43) المثل السائر:56/1.
(44) النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي :مي يوسف خليف، دار قباء ، القاهرة ، (د.ط) ، (د.ت)ص:16.
(45) المثل السائر:63/1،ومن جملة أمثال العرب،"إنْ يبغِ عليك قومك لا يبغِ عليك القمر" وهو يضرب للأمر الظاهر المشهور.
(46) المثل السائر:62/1.
(47) المثل السائر:63/1.
(48) المثل السائر:61/1-62.
(49) ينظر المثل السائر:63/1.
(50)(51) المثل السائر:63/1.
(52) المثل السائر:64/1
(*)الحسبة :(بالكسر):الأجر، واسم من الاحتساب وهو حُسن الحسبة؛ أي حسن التدبير.
(53) المثل السائر:70/1.
(54) المثل السائر:71/1.
(55) المثل السائر:69/1.
(56) المثل السائر:69/1.
(57) المثل السائر:137/1.
(58) المثل السائر:71/1.
(59) المثل السائر:171/1.
(60) المثل السائر:124/1.
(61) للتوسع ينظر الفصل الثاني من كتاب : الوشي المرقوم في حل المنظوم بعنوان: حلّ آيات القرآن ، لابن الأثير ، تحقيق يحي عبد العظيم ، الهيئة العامة للعصور الثقافة ، القاهرة ، ط1 ، 1948
(62) ينظر المثل السائر:190/1.
(63) المثل السائر:191/1.
(64) المثل السائر:191/1.
(65) النقد والنقاد المعاصرون : محمد مندور ، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، (د.ط)،(د.ت) ،ص:19.
(66) المثل السائر:73/1.
(67) المثل السائر:73/1.
(68) المثل السائر:137/1،ويقارن بالجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور لابن الأثير،ص:26-27.
(69) نظرية الإبداع في النقد العربي القديم : عبد القادر هني،ص:137.
(*) يقال: طَبَعَ السيف والدرهم والجرة عملها.
(70) المثل السائر:38/1.
(71) ينظر النقد والنقاد المعاصرون: محمد مندور،ص:17.
(72) كابن قتيبة، وابن وهب وغيرهما .